KUFA STUDIES CENTER JOURNAL
UNIVERSITY OF KUFA
مجلة مركز دراسات الكوفة - جامعة الكوفة
KSCJ OPEN ACCESS
ISSN (P) : 1993-7016
ISSN (E) : 2708-728X
www.journal.uokufa.edu.iq

ظواهر لسانية معاصرة في التراث اللغوي العربي القديم

أ.م. حوراء مهدي عبد الصاحب الكوفي
مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

DOI: https://doi.org/10.36322/jksc.v1i71.15050

الملخص:

جاء البحث؛ ليبين أهم الملامح اللسانية التي تناولها اللغويون العرب، والتي تتفق في مضامينها مع ما توصلت اليه اللسانيات المعاصرة؛ من جهة تعريفهم لمفهوم اللغة ودراستها وفق معطيات المنهج الوصفي، إذ بحثوا في أهم الظواهر اللغوية على صعيد المستوى الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والمعجمي، والدلالي، وتعليم اللغة واكتسابها، ودرسوا علاقة اللفظ بالمعنى، والإشارة، واعتباطية العلامة، وعلاقة اللغة بالمجتمع.

وقد انطلق البحث من إشكالية، مفادها تقصي معالجة التراث اللغوي العربي القديم للظواهر اللسانية، في ضوء ما توصلت اليه اللسانيات الغربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الظواهر اللسانية ، التراث اللغوي ، الظواهر اللغوية المعاصرة.

Abstract:

The search came; To show the most important linguistic features addressed by Arab linguists, and whose contents agree with what contemporary linguistics has reached; In terms of their definition of the concept of language and its study according to the data of the descriptive approach, they investigated the most important linguistic phenomena at the phonological, morphological, syntactic, lexical, and semantic levels, language learning and acquisition, and studied the

relationship of pronunciation to meaning, sign, the arbitrariness of the sign, and the relationship of language to society.

The research started from the problem of investigating the ancient Arabic linguistic heritage's treatment of linguistic phenomena, in light of the findings of contemporary Western linguistics.

Keywords: Linguistic phenomena, linguistic heritage, contemporary linguistic phenomena.

المقدمة:

كانت اللغة العربية وما زالت مفخرة بين اللغات، وكان النحو درعاً واقيّاً لها من الانحراف والضياع، وكانت البلاغة واسطة العقد في هذه اللغة، التي اعتز بها القدامى وتفاخروا ببلاغتهم وفصاحتهم، بما كانوا يتصفون به من حضور الخاطر، وسرعة البديهة، وذوق فني رفيع، فقد حملت لنا لغتنا العربية، تراثاً وحضارةً زاخرة بألوان الفنون والإبداع والثقافة والأدب، ولذلك تناولت في بحثي الموسوم بـ (ظواهر لسانية معاصرة في التراث اللغوي العربي) فتكون البحث من تمهيد ومبحثين وعلى الشكل الاتي:

فجاء التمهيد وتضمن مفهوم مصطلح الألسنية المعاصرة.

والمبحث الأول والذي عنونته بـ (نبذة تاريخية عن الدراسات اللسانية المعاصرة).

ثم المبحث الثاني وقد تناولت به ظواهر لسانية معاصرة في التراث اللغوي العربي القديم.

التمهيد: مفهوم مصطلح الألسنية المعاصرة:

أمام هذا العنوان لا بّد لنا من أنْ نتساءل: ما الألسنية المعاصرة، التي أصبح جميع المهتميّن بالدراسات اللغوية عندنا يتحدثون عنها، ويستشهدون بها، ويشحنون كتاباتهم ومراجعهم ببعض من حصائلها، بعد أن

أصبح موضوعها الموضوع المفضل للترجمة والاقتباس، وبعد أن تراكمت المقالات والكتب المهتمة بها تراكما لا مثيل له.

كيف نستطيع تمثلها؟ ما علاقتها بالعلوم الأخرى؟

ما النشاط الألسني بالمقارنة مع سائر الأنشطة العلمية؟

لماذا تنغلق المادة على المبتدئ والمتقدم في آن معاً.

وتختلف الأجوبة باختلاف وضع المساءلة، بما فيه وضع السائل ووضع المسؤول، والإطار الذي يطرح فيه السؤال. وجوهر الانغلاق مردّه في النهاية إلى ما يفترض في مستهلك الألسنية من تخزين لأدوات معرفية قد لا تتوافر له بسهولة، خصوصاً وأن كثيراً من عناصرها ليس واضحاً ولا صريحاً في كثير مما يُكتب، وإنَّما هي ضمنية لا يهتدي إليها إلاّ المخصَّص الشديد الإمعان في النظر إلى ما يسمع، وما يُقرأ وما يُكتب. وقد تتجه المساءلة على مستوى أفقي إلى إمكانات التطبيق لهذه المبادىء، وهذه القيود والنعوت المجردة، وإمكانات الخروج من عمل أكاديمي أساسي ونظري إلى عمل تطبيقي تنعكس آثاره على المشكلات العلمية التي يعاني منها الفرد والمجتمع.

فنذكر من هذه المشكلات: تغيير الوضع اللغوي، وإعداد المفردات الفنّية ، وإعادة النظر في أجهزة اللغة قصد تجديد التعبير بها، وإتاحة الفرصة لتطويعها، وإدماج مفاهيم حضارية وعلمية جديدة بالدرس الألسني، فضلاً عن تناول مشكلات التعليم وتصميمه وبرمجته، وتحقيق الأهداف المتوخّاة منه، ووضع الكتاب المدرسي، وتأليف القواميس، والكتب النحوية واللغوية على أنواعها، واستثمار نتائج البحث الألسني في تعليم اللغة العربية للناطقين بها وغير الناطقين، وتطبيق اللسانيات في تحليل الخطاب الأدبي والسياسي، وتحليل الآثار الفنّيّة، وكل ما يتصل بالنشاط الكلامي ومعالجة النصوص معالجة دقيقة، وإقامة الصّلة بين قضايا الألسنية وقضايا الاعلام، وسائر الميادين التطبيقية: وقد يتّجه التساؤل عمودياً

إلى ربط الصلة بأنماط خطابية علمية أخرى، ولاسيما الخطابات اللسانية القديمة المتوافرة ضمن التراث القومي.

وللألسنية الحديثة نظرية كسائر النظريات تقوم على بناء عقلي يتوق إلى أكبر ربط ممكن بين عدد من الظواهر التي يحكمها مبدأ عام، هو مبدأ التفسير المتمثّل في مجموعة من المفاهيم الأساسيّة ومن المسلّمات التي تسهم بدورها في تحقيق عملية التفسير، وما فيها من استنتاجات منطقية.

وقد يذهب بعض المهتميّن بالدراسات الألسنية إلى أن هنالك أسئلة تشغل بال معظمهم، منها[1]:

١- ما السمات التي تلتقي فيها اللغات؟ وما السمات التي تختلف فيها أو تفترق؟

٢- إلى أي مدى تغيّرت اللغات؟ وإلى أيّ مدى بقيت ثابتة ومستقرة؟

٣- ما السمات اللغوية الواردة لتخصيص اكتساب الطفل للغة؟

أضف إلى ذلك عدداً من الخصائص والعلائق اللغوية التي تثير التّساؤل:

كالنحويّة (grammaticalite) (grammaticalitJ)

والتحليليّة (Analgticite) (AnalgticitJ)

والترادف، والتناقض، وسواها مما يميّز اللغات، ويساعد على معاينتها ومعرفتها.

وللإجابة عن هذه الأسئلة، يتعيّن الانتقال إلى دراسات منهجية، ومبادئ وأسس يبنى عليها وصف اللغات، والإجابة عن الأسئلة المطروحة، مع العلم بأنَّ جلّ هذه الأسئلة والأجوبة هو محل خلاف لدى الألسنيين، وأنَّ الألسنية مشدودة إلى المراوحة ما بين النظريّ والتّجريبي، حيث لا يكون النظريّ نظريّاً إلاّ إذا كانت له طموحات تجريبية، وحيث التجريبي لا يكون كذلك إلاّ إذا اتُّخذ أساساً لإنبات القضايا النظرية.

أما اللسانيات التطبيقية، فليست في حقيقتها سوى الوجه الآخر للنظرية اللسانية العامة. كوضع كتاب لقواعد اللغة، أو تأليف معجمي أو كتاب مدرسي في موادّ معيّنة، أو رسم وسائل التدخّل لتغيير وضع

لغوي، أو معالجة أمراض كلامية، أو غير ذلك. والتطبيق مراتب. فوضع نحو للغة العربية من النمط الألسني الحديث يمكن أن يُعد تطبيقاً من المرتبة الأولى. فهو تمثيل لنظرية لسانية عامة، ويدخل معها في العلاقة الموصوفة أعلاه.

وقد يعده بعضهم تنظيراً لِلُغَةٍ خاصةٍ هي العربية. وهذا التطبيق في المرتبة الأولى يمكن أن يأتي بعده تطبيق من المرتبة الثانية. ففي تصميم كتاب مدرسي لقواعد اللغة العربية يمكن أن يؤخذ هذا البحث مادة أولية أو نظرية تستثمر في حصر أهداف الكتاب، وبالمثل، فإن معالجة مشكلة التعريب في جانب إعداد المصطلح، أو تعريب الأعلام، أو تعريب الاداة، وكذلك معالجة المشكلات التعليمية قد تكون لها أبعاد تطبيقية من مراتب مختلفة.

إن هذا يحدونا إلى التفكير في وضع لسانيات عربية حديثة يكون من بعض معالمها[٢]:

١-دراسة العربية في إطار لسانيات تطورية أو تاريخية تضبط هذه اللغة في مراحلها المختلفة، والمبادئ التي تتحكّم بهذا التطور.

٢-دراسة اللغة العربية واللهجات دراسة نفسية لسانية تهدف إلى الإفادة منهما معاً.

٣-بناء نحو ألْسنيّ للغة العربية يساعد في تجديد الدراسات النحوية وتطويرها وتحسينها.

٤-بناء نظرية تؤرخ للفكر اللغوي العربي، بعيداً عن الاسقاطات الظرفية، بتبنّي منْهجيّة علمية سليمة تنفذ إلى فكر عربي سليم ومبادئ توجّه البحث العلمي عند العرب.

٥-تطبيق نتائج الألسنية الحديثة في حلّ مشكلات اللغة العربية، وضمنها تدريس العربية، والتدريس بها، وبعث ثقافة عربية ذات مستوى لائق.

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن الدراسات اللسانية المعاصرة:

من المألوف في علم اللغة أن يقال: إنَّ القرن التاسع عشر هو عصر الدراسة التاريخية، والمقارنة بين اللغات[٣]، ولاسيما اللغات الهندو أوروبية. ولكن هذا لا يعني أنه لم تَجْرِ قبل هذا الوقت بحوث تاريخية

تقوم على مقارنة اللغات ولا أن كل الجوانب الأخرى لعلم اللغة قد تمّ تجاهلها خلال القرن التاسع عشر، ولكن المسألة هي أن هذا القرن قد شهد تطور المفاهيم النظرية والمنهجية الحديثة لعلم اللغة التاريخي والمقارن.

ثم جاء القرن العشرين، فكانت النهضة السريعة لعلم اللغة الوصفي في مقابل علم اللغة التاريخي. وكانت الشخصية الرئيسة في تغيير مواقف القرن التاسع عشر إلى موقف القرن العشرين هي شخصية اللغوي السويسري فرديناند دي سوسُّر De Saussure ومع أنَّ هذا المفكر اللغوي قد نشر القليل بنفسه، فإن محاضراته في علم اللغة في أوائل القرن العشرين قد أثرّت كثيراً في بعض تلاميذه في باريس وجنيف، حتى أنهم نشروها في العام ١٩١٦ م تحت عنوان:

"محاضرات في علم اللغة العام"(Cours de ling uistque ginerale) [٤]

بعد أن جمعوها ونظّموها ونقلوها عن كرّاساتهم، فضلاً عن موادّ معينة كانت باقية بخط دي سوسُّر، وصار يدرس.

اعتمد دي سوسُّر على نطاق محدود من اللغات، هي غالباً لغات أوروبّا المألوفة. ولكن تأثيره في علم اللغة في القرن العشرين كان عظيماً جداً. وقد شُبِّهَ نشر محاضراته في موضوعها بالثورة التاريخية. هذه المحاضرات يمكن أن توضع في ثلاث خانات:

أولها: أنه صاغ وأوضح ما عده اللغويون السابقون أمراً مفزوعاً منه، فتجاهلوه؛ وفيه بُعْدان أساسيّان ضروريان للدراسة اللغويّة. الأول هو الدراسة التزامنية Synehronic التي يُعالج فيها اللغات بوصفها أنظمة اتصال تامّة في ذاتها مهما يبعد فيها الزمن. والثاني هو الدراسة التعاقبية (التاريخية) Diaehronic التي تعالج عوامل التغيير التي تخضع لها اللغات في مسيرة الزمن. فكانت إنجاز البعد التزامني أو الوصفي، والبعد التعاقبي أو التاريخي، وكل منهما يستعمل مبادئه ومناهجه الخاصة في أي

مقرّر تعليمي للدراسة اللغوية. وهكذا كانت محاضرات دي سوسُر عاملاً اساسياً في تطوير الدراسات اللغوية الوصفية في القرن العشرين.

أما الخانة الثانية فهي تمييز دي سوسُر بين المقدرة اللغوية لدى المتكلم، وبين الظواهر الواقعية أو المنطوقات في مادّة علم اللغة، بوصفها لغةً، وكلاماً Langue of Parole. وكل منهما يختلف عن الآخر أينما زمانه(٥).

فبينما يشكل الكلام المادة التي يمكن الحصول عليها مباشرة فإن الهدف الصحيح للغوي هو الوصول إلى اللغة، لغة كل قوم، أي المعجم والفونولوجيا والقواعد المغروسة لدى كل فرد يتكلم هذه اللغة في المجتمع الذي نشأ فيه. وربما يكون دي سوسُر متأثراً هنا بعض التأثر بنظرية العالم الاجتماعي أميل دوركايم.

والخانة الثالثة: هي التي عبّر عنها دي سوسير بقوله: إن اللغة صيغة وليست مادة. وإنها نظام من العناصر المعجمية والقواعدية والفونولوجية. وهذه المقاربة البنائية في دراسة اللغة تشكل الأساس العقلي لمجمل علم اللغة الحديث بنائياً وصوتياً. ومنها انطلق علم الأصوات الصائتة والأصوات الصامتة Vogellret corsone مصنفة بحسب نطقها، ثم اكتشاف الفونيم وهو أصغر وحدة صوتية في اللغة، وواسطة العقد في دراسة الصوتيات التي اعتمدتها مدرسة براغ في العشرينات والثلاثينات من القرن المنصرم.

إنَّ مدرسة براغ كانت مجموعة من العلماء التشيكيين وعلماء آخرين بينهم جاكوبسون. هؤلاء العلماء التفتّوا حول الأمير نيكولاي تروبتسكوي Trubetskoy الذي كان أستاذاً في فيينا بين ١٩٣٢ و ١٩٣٨. وقد عقدت هذه المدرسة لقاءات منظّمة، ونشرت أعمال أعضائها باسم "أعمال حلقة براغ اللغوية"، وأبرز اهتماماتها كانت فونولوجية أي صوتية، يمثّلها أفضل تمثيل كتاب زعيمها تروبتسكوي "أسس الفونولوجيا". الذي ظل يعمل في إعداده حتى وفاته. لقد طبّق تروبتسكوي وزملاؤه في مدرسة براغ نظرية دي سوسُر

ISSN (P) : 1993-7016
ISSN (E) : 2708-728X
www.journal.uokufa.edu.iq

انطلاقاً من أن أصوات الكلام تنتمي إلى "الكلام" (Parole). أما الفونيم فينتمي إلى "اللغة" (Langue) بما فيه من همس وجهر[٦].

ولقد نشأ مفهوم الفونيم من خلال البحث عن نظرية الكتابة الصوتية، ومع نتائج أعمال مدرسة براغ، أصبح عنصراً أساسياً في النظرية اللغوية، وفي الوصف والتحليل العلميَّيْن للغات.

ولكن الأنشطة اللغوية، وفي الوصف في مدرسة براغ لم تقتصر على الفونولوجيا وإنما أسهمت في مجالات لغوية أخرى على نطاق واسع كعلم الأسلوب (الأسلوبية Stylistique) والأنماط النحوية المقارنة. وفي علم الصرف تمثل دراسة ياكوبسون عن اللغة الروسية منهجاً تحليليّاً دقيقاً في وصف الفئات القواعدية التي أسهمت في ظهور القواعدية التوليدية والتحويلية التي سيشتهر فيها تشومسكي وفي التحليل الدلالي الكامل الذي سيسهم إلى حدّ بعيد في تطوّر علم الدلالة ورقيه واتساعه، فضلاً عن أن نظرية الفونيم التي عنيت بها مدرسة براغ قد أدَّت إلى تطورات مهمة جداً في نظرية القواعديين الجدد، أما في الولايات المتحدة الأميركية، فقد نشطت الدراسات اللغوية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، وبخاصة علم اللغة الوصفي، فترك ذلك آثاراً عميقة وواسعة النطاق في تطور الدراسات اللغوية والتفكير اللغوي.

وهناك ثلاثة علماء بارزين وضعوا علم اللغة الاميريكي في مساره وهم:

١- فرانز بووز.

٢- وادوارد سابير.

٣- وليونارد بلومفيلد.

وكان بووز هو الأكبر. وقد علّم كثيراً من اللغويين الأميركيين من الجيل التالي، مما جعل بلومفيلد يقول عنه: "إنّه أستاذنا كلّنا"[٧].

ولم يكن هؤلاء العلماء الثلاثة بمعزل عما يجري في أوروبا، بل كانوا على اتصال وثيق بأعمال اللغويين الأوروبيين. وكانت أعمالهم اللغوية من جهة ثانية شديدة الارتباط بعلم الأنثروبولوجيا. وقد واجه الأنثروبولوجيون واللغويون الاميركيون تحدّياً مشتركاً في المجال الواسع للغات الاميركية – الهندية.

على أن نقطة التحوّل في علم اللغة إبّان القرن العشرين، ترتبط بالعام ١٩٥٧ م حين نشر تشومسكي اللغوي الاميركي كتابه الموسوم: "التراكيب النحوية" Syntactic Strueturs الذي قُدِّم على نحو بعيد الأثر للجمهور اللغوي في أميريكا، ثم في بقية العالم المتحدّث باللغة الانكليزية، وأخيراً للمجتمع اللغوي برمّته. لقد قدّم ما سمّي بالقواعد "التوليدية التحويلية". هذه القواعد تهتم مباشرة بآلية اللغة التي تتيح للإنسان أن ينتج جمل اللغة كلها.

وتعد القواعد التوليدية جزءاً من جهاز توليد الجمل، وتحصر مفهوم التوليد بعملية ضبط أو تثبيت لعدد كبير جداً من الجمل التي يحتمل وجودها في اللغة، وهي تعطي المعلومات اللازمة لتوليد كل الجمل الصحيحة، والمحتملة الصياغة من دون سواها في اللغة، أي أن القاعدة التوليدية تمنع في الوقت نفسه توليد الجمل غير الصحيحة[٨].

فالتحويل يقوم مفهوم التحويل على الملاحظة التالية: في اللغة جمل يرتبط بعضها ببعض برباط وثيق. ولا يمكننا من خلال دراستها فقط أن نلحظ الصلة القائمة بينهما.

ولنأخذ الجمل التالية:

١- أكل الرجل التفاحة.

٢- الرجل أكل التفاحة.

٣- التفاحة أكلها الرجل.

ولكي نفسّر العلاقة القائمة بين هذه الجمل لا بّد لنا من مفهوم يتيح لنا أن نبحث في الجمل، ونعيد تركيب عناصرها.

نقول مثلاً: إنَّ الجملة رقم ٢ والجملة رقم ٣ متحولتان من الجملة رقم ١ عن طريق إجراء تحويل، ينقل الاسم فيضعه في موضع ابتداء الكلام، ويجري بعض التعديلات في رقم ١.

ويعتمد مفهوم التحويل، عندما تفيد أكثر من جملة المعنى ذاته بالرغم من تباين تراكيبها. فنقول إنَّ هذه الجمل متحولّة من جملة واحدة موجودة في البنية العميقة.

ومثل ذلك الجمل التالية:

١-يبدو أنّه قد ارتفعت كلفة الحياة.

٢-يبدو أنّ كلفة الحياة قد ارتفعت.

٣-تبدو كلفة الحياة مرتفعة.

٤-كلفة الحياة تبدو مرتفعة.

مستويات اللغة:

في اللغة ثلاثة مستويات أساسية هي:

١-المستوى الصوتي.

٢-المستوى الاجرائي.

٣-المستوى الدلالي.

ويضيف بعض الألسنيين المستوى الصرفي الذي يتناول دراسة الكلمات المركبة، والتغييرات الممكن حصولها ضمنها.

يدرس المستوى الصوتي في نمطين:

أولهما الدراسة الصوتية النطقيّة Articulatoire ، التي تتوخى وصف كيفية إنتاج أصوات اللغة، بواسطة أعضاء، كاللسان والشفتين، والحلق، والتجويف الأنفي.

وثانيهما الدراسة الصوتية السمعية Acoustique ، التي تدرس الخصائص الفيزيائية للموجات الصوتية التي ينطق بها المتكلم.

المستوى الدلالي:

يدرس دلالات العناصر اللغوية أو المفردات من حيث معانيها Semantique كما يدرس الاشارات Signes وما ترمز إليه ويصرف اهتمامه إلى المبادئ التي تسيّر عمل تنظيمات الرموز Les cods ، والتي على أساسها يتم تصنيف هذه التنظيمات.

إنَّ علم الدلالات هو مستوى من مستويات الوصف اللغوي يتناول كل ما يتعلق بالمعنى فيبحث مثلاً في تطوّر معنى الكلمة، ويقارن بين الحقول الدلالية المختلفة.

مستوى التراكيب:

يبحث هذا المستوى في العلاقات القائمة بين المورفومات داخل الجمل بغية لحظها وتحديدها والوقوف عليها هذا غيض من فيض بالنسبة إلى أعمال تشومسكي في حقل الألسنية وما يزال هذا الرجل حياً يعمل بجد ونشاط ويطلع على الألسنيين كل يوم بشيء جديد مدهش. لكنه ليس وحده في الساحة، ففي العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً أعلام بارزون يسهمون معه في تطوير الدراسات الألسنية اسهاماً كبيراً.

والجدير ذكره في هذا المقام أن الألسنية منهجية جديدة قائمة على مفاهيم علمية وموضوعية بحتة، تأثرت كثيراً بالحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية والأدبية. لذلك أصبحت قضاياها من حيث هي خاصة إنسانية فريدة تهمّ بالقدر نفسه: الدراسات الانثروبولوجية والسوسيولوجية، والسيكولوجية والفلسفة، كما أن أساليب النقد الأدبي وطرق تعليم اللغات تأثرت بالألسنية، واستمدت منها منهجيتها ومفاهيمها الأساسية.

ومن ناحية أخرى تأثرت الألسنية بدورها بالمنطق الرياضي، وبالبرمجة الآلية، فتم وضع النماذج اللغوية الشكلية المتعددة، كما تم بناء أكثر من آلة متطورة لدراسة الأصوات اللغوية وقد أسهمت الدراسات العصبية المتطورة في إدراك الألسنية المناطق اللغوية في الدماغ الإنساني.

ونجم عن تعاون الألسنيين مع الأطباء المتخصصين في المجال العصبي في اطار ما نسميّه الدراسات العصبية، ألسنية تختص بتفهم للأمراض اللغوية وطرق معالجتها.

أما القضايا اللغوية، فقد بقيت مدة طويلة تابعة للفلسفة والسيكولوجيا. ومنذ القرن التاسع عشر نلحظ أنّ هذه القضايا بعد أن شملت دراسة اللغات الإنسانية المتنوعة خضعت للمفاهيم التاريخية، والبيولوجية، والسوسيولوجية، والسيكولوجية، إلى درجة أنّ الألسني دي سوسير الذي يعد مؤسس الألسنية تردّد طويلاً قبل أن ينظر إلى اللغة واقعاً قائماً بذاته، وقبل أن يعرّفها: "بأنّها تنظيم من الاشارات والمفارقة والمغايرة" راسماً من هذا المنطلق المنهجية العلمية التي انطلقت من الألسنية لتوسع مفاهيمها وتعزّزها عبر تقصي المبادئ العلمية الصرفة.

ولم تصل الألسنية إلينا علماً حديثاً دفعة واحدة. بل لم تحقّق كيانها الذاتي واستقلاليتها عن بقية المجالات الإنسانية بين يوم وآخر، إنما مرّت بمراحل متعددة يمكن حصرها ضمن المراحل الثلاث الآتية[٩]:

١-مرحلة الدراسات التاريخية والمقارنة: التي دامت مئة سنة تقريباً بدءاً من ١٨١٦ سنة صدور كتاب فرانزبوب الموسوم: "نظام السنسكريتية الصرفي، وعلاقاته مع اللغات: اليونانية واللاتينية والفارسية والألمانية" وانتهاء بالعام ١٩١٦م، حين نشر تلاميذ (دي سوسُر كتابه أو بالأحرى محاضراته التي جمعوها ونشروها تحت عنوان: "محاضرات في الألسنية العامة".

٢-مرحلة الدراسات البنيانية التي بدأت بكتاب دي سوسير المشار إليه أعلاه وانتهت في العام ١٩٥٧م، حين نشر تشومسكي كتابه الشهير "البنى التركيبية" الذي يشتمل على النظرية التوليدية – التحويلية.

وقد ركزّت هذه الفترة على منهجية الدراسة الألسنية البنيانية وعلى مفهوم التغاير والمفارقة، ولحظ العناصر والبنى اللغوية، وتصنيفها في فئات وفقاً لشكلها وتوزيعها في السياق. ويندرج في هذه المرحلة ضمن الالسنية البنائية ثلاثة تيارات أساسية هي نادي براغ الألسني الذي اهتم بدراسة الفونولوجيا وكان من أبرز أعضائه تروبتسكوي وجاكوبسون ويقترب منهما مارتيته الفرنسي ومدرسة فيينا ومدرسة كوبنهاغن

الألسنية التي أسّسها في الدنمارك يَلْمِسْلوف واشتهرت بدراستها الألسنية الشكلية وبالمنطق الرياضي وأساليب البحث العلمي الصرف.

والمدرسة البنيانية الاميركية التي اشتهر فيها سابيروبلومفيلد وتوّجها تشومسكي في قواعده التوليدية والتحويلية.

٣-المرحلة التنظيرية التفسيرية التي انطلقت من كتاب تشومسكي "البنى التركيبية" وركّزت على آلية التكلم عند الإنسان، وعلى نشاطه اللغوي. وقد اتخذت منحى علمياً جديداً يعتمد النشاط العلمي التنظيري، ويهدف إلى بناء نظرية متكاملة تتناول اللغة تناولاً شمولياً، وتفسر كيف يستطيع الإنسان أن يصوغ عدداً غير متناهٍ من الجمل التي تتضمنها لغته.

ومع تطور الدراسات الألسنية لم يعد بامكان أي باحث معالجة قضايا اللغة من غير الوقوف على مبادئ الألسنية ومنهجيتها.

ولقد تطوّر علم اللسانيات في القرن العشرين تطوراً واسع النطاق، وظهرت فيه عدة ثورات: أولاها ثورة اللغوي السويسري فردينان دي سوسّور في محاضرته التي نشرها تلاميذه في العام في العام ١٩١٦، أي بعد وفاته بأربع سنوات في كتاب عنوانه: "محاضرات في علم اللغة العام"، وثانيتها في ظهور مدرسة براغ التي ضمت مجموعة من العلماء بينهم رومان جاكوبسون، والأمير نيكولاي تروبتسكوي، وقد عقدوا اجتماعات منظمة أو نشروا أعمال " حلقة براغ اللغوية" وثالثتها في ظهور اللغوي الاميركي تشومسكي الذي نشر في العام ١٩٥٧م كتابه الشهير "التراكيب اللغوية" فأحدث التحوّل العظيم في علم اللغة الذي عرفه القرن العشرون وقدم للجمهور اللغوي في اميريكا ما سمّي بالقواعد التوليدية – التحويلية، ولا يزال يُتْبِعها كل يوم بأشياء جديدة مهمة.

أما الثورة الرابعة فكانت في ظهور البنيوية وهي نزعة مشتركة بين عدة علوم، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم السلالات البشرية، وعلم الحياة وعلم اللغة والأدب وسواها[١٠]. والذي يهمنا منها ههنا

البنيوية اللغوية، التي تقوم على تحديد وظائف العناصر الداخلة في تركيب اللغة، وهي مندرجة في منظومات واضحة، وقد بذل العلماء جهوداً جبارة لاعتمادها أسلوباً في كل قضايا اللغة والعلوم الإنسانية والفنون.

وإذا كانت البنيوية ذات جذور في محاضرات دي سوسير، وفي كتابات مدرسة براغ، ولغويات بلومفيلدوسابير وسواهم فإنها قد توضحّت واستكملت عدتها على أيدي جماعة من الفرنسيين بينهم كلود ليفي شتراوس Cloude Levy Strous ورولان بارت Barth ، وميشيل فوكو Foucault وجالوكان Lakn ودرّيدا Derrida . والجدير بالذكر أنَّ البنيوية ليست مذهباً، بل هي منهج، إذ لا يمكن المرء أن يصبح بنيوياً بالطريقة التي يمكنه أن يصبح بها وجودياً مثلاً؛ لأنَّ البنيوية طريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل من حقول المعرفة، بحيث تخضع هذه المعطيات – فيما يقول البنيويون – للمعايير العقلية، يتوزّع نشاط الألسنيين حالياً على عدة اختصاصات أهمها: الألسنية الوصفية أو التزامنية، والألسنية التطورية أو التاريخية، والألسنية العامة، والألسنية البنيوية.

ولقد بزغ فجر العلوم اللسانية في الربع الأول من القرن العشرين، واتسع نطاقها حتى شمل العلوم كافّة.

وكان من شأن العلم اللساني أن زوّد العلوم الأخرى بطرائق البحث العلمي، وبالمبادئ والنواميس والأنظمة والقوانين التي تضبطها، وتحلّ مشكلات التعبير عنها، فأضفى ذلك على اللسانيات مزايا ومكانة مرموقة، ودخلت التاريخ مع الذرّة والإلكترون، وسارت في مقدمة الركب، وأدرك الألسنيون ما لهذا النوع من الكشف من شأن خطير، فرسموا معالم الطريق، وقعدّوا الدراسات اللغوية ونظموا قوانينها، فدخلت الألسنية في نظام أعمّ(١١).

وقد وضع هذا النظام تصوّراً جديداً لبنيان اللغة، وابتغى عملياً صوغ قواعد حديثة قابلة للتطبيق، وقام اتصال وثيق بين مختلف علماء الجديد الذين اطلعوا على العلوم الحديثة، واتصلوا بثقافة عصرهم، فتزوّد بعضهم بعلوم بعض، وزوّدوا غيرهم بها.

ولقد تبين أنّ حركة العلوم اللسانية في مطلع القرن العشرين هي ثورة بالنسبة إلى خط التاريخ الذي اعتاد أن يجرف معه أنواعاً من عناصر العيش الذي ينطوي عليها الزمان والمكان.

إنَّ الألسنية التطبيقية ذات دور فعال في تدريس العلوم والفنون والتكنولوجيا، وهي الوسيلة والغاية في تدريس المواد التي تحمل في طياتها – عدا المعلومات – شيئاً من الجماليات، ومن ميادين اهتمامها مشكلات اللغة، التي ترافق الحياة اليومية والمهنية، ومواد التعليم التي تضم الدراسات والأبحاث وتحليل النصوص الأدبية، أو النقد الأدبي، والأساليب الأدبية بصورة خاصة.

ولقد ازدهرت الدراسات اللسانية كثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين، وتطورت تطوراً هائلاً مع تطور العلوم العصرية، وتكنولوجيا المعلومات فاكتشف الألسنيون الغربيون آفاقاً واسعة شاسعة في مجالات المعرفة اللغوية، ظل العرب بعيدين عن أكثرها. وظهر من مظاهر التحدّي التي تواجهها اللغة العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين. لذلك ينبغي أن يتجّه العرّب نحو العلوم اللسانية الحديثة التي تطورت في الغرب تطوراً هائلاً وأن يتوسلوا مناهجها، ويطبقوا نظرياتها في دراساتهم، ليتحقق للغة العربية تطور متواصل يمكّنها من استيعاب الدراسات اللسانية واستعمالها في العمل اللغوي العربي، وليس هنالك ما يمنع العلم اللساني من أن يشق طريقه إلى اللغة العربية نظرياً وتطبيقياً مهما تكن ميادينه واسعة وإنجازاته كثيرة. وقد حصل شيء من ذلك في الربع الأخير من هذا القرن، ولكنه محدود. فالعلوم اللسانية في حاجة إلى كثير من الجهود العربية للتغلب على الصعوبات والتحديات المعقّدة التي تعترض سبيلها ولا يجوز لدارس اللغة العربية ولاسيما المتخصص فيها أن يجهل ما أثبته العلم في عصرنا الحاضر من قوانين ومعلومات مفيدة ومناهج علمية في الدرس اللغوي.

المبحث الثاني: ظواهر لسانية معاصرة في التراث اللغوي العربي القديم:

قبل الولوج بالظواهر اللغوية التي وجدنا في الكتب اللغوية القديمة لابد لنا ان نثير سؤال وهو:

إلى أيّ مدى تُعَدُّ الألسنية الحديثة جديدة على اللغة العربية؟

من يعد إلى التاريخ العربي يجد أنّ تراث العرب اللغوي والثقافي والأدبي كميات هائلة من الأعمال اللغوية قلما نجد مثلها في تراث أية أمة من الأمم.

وهذه الأعمال هي التي جعلت من لغة العرب على مدى بضعة قرون اللغة العالمية الزاخرة بأغنى تراث علمي وثقافي وأدبي وفكري عرفه العالم في العصور الوسطى. ولا ريب في أنّ الدراسات اللغوية العربية كان لها نصيب كبير جداً من ذلك التراث. فهو يعج بأسماء اللغويين والدارسين والمؤلفين الذين يعدوّن بالآلاف وبأسماء الكتب التي تركوها في الحقول اللغوية وهي أكثر من أن تحصى. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

الأزهري: تهذيب اللغة. الاسترابادي: شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهده لعبد القادر البغدادي. أبو حيّان الأندلسي: تذكرة النجاة. البغدادي: ذيل الفصيح. ابن البناء: كتاب العيوب التي يجب أن يتجنبها القرّاء. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز. ابن الجرزي: تقويم اللسان. سيبويه: الكتاب. ابن جنّي: سر صناعة الإعراب. الجواليقي: التكملة. الجوهري: الصحاح في اللغة والعلوم. الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين. ابن خلدون: المقدمة. الخوارزمي: مفاتيح العلوم. ابن دريد: جمهرة اللغة. فخر الدين الرازي: نهاية الايجاز في دراية الاعجاز. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس. الزجّاجي: كتاب الجمل في النحو. الزمخشري: أساس البلاغة. السكاكي: كتاب مفتاح العلوم. ابن سينا: رسالة أسباب حدوث الحروف. السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو. السيوطي: المزهر في علوم اللغة. ابن عصفور: الممتع في التصريف. الفيروز آبادي: القاموس المحيط. محمد مفتاح: الإبانة عن معاني القراءات. ابن هشام: رسالة المباحث المرضية المتعلقة "بمن" الشرطية. ابن يعيش: شرح المفصّل. البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية. أبو الطيب اللغوي: الإبدال. ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام. أبو بركات الأنباري: أسرار العربية. ابن دريد: الاشتقاق. الجواليقي: صلاح ما تغلط فيه العامة. ابن سراج: الأصول في النحو. الأصمعي: كتاب

ISSN (P) : 1993-7016
ISSN (E) : 2708-728X
www.journal.uokufa.edu.iq

الأضداد. محمد بن قاسم الأنباري: كتاب الأضداد. الزجاج: معاني القرآن واعرابه. ابن القفطي: إنباه الرواة على أنباء النحاة. ابن مالك: الألفية. ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك. الجاحظ: البيان والتبين.

ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع. البغدادي: خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب. الرازي: الزينة في الكلمات الإسلامية العربية. ابن جاهد: السبعة في القراءات. ابن قتيبة: عيون الأخبار. الفيروز آبادي: القاموس المحيط. ابن هشام: مغني اللبيب. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث.

فهذه القائمة عن المؤلفين ومؤلفاتهم اللغوية في العصر العباسي هي غيض من فيض، وهي لا تشكل سوى نسبة ضئيلة من التراث اللغوي العربي. ولا ريب في أن كلّا منها يحتوي على قضية، أو دراسة، أو مناظرة، أو نظرية جديدة في الحقل اللغوي، وأن معظم هذه الكتب يتطرق إلى مشكلات لغوية هي في صلب العلوم اللّسانية، وأن لم يكن مصطلح اللسانية أو الألسنية مستعملاً آنذاك على نحو ما هو شائع اليوم. فلو أردنا أن نتكلم على القضايا اللسانية في هذه الكتب وفي أمثالها، لاقتضى ذلك منا زمناً طويلاً، ولو جدنا أن العرب قد اهتدوا في بعض مراحل تاريخهم إلى دراسات لسانية كثيرة. وسوف نقتصر في التمثيل على ذلك بعملين فقط، هما: "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، وكتاب "البيان والتبين" لأبي عثمان الجاحظ.

أما كتاب العين، فهو في أصله معجم دعت إليه الحاجة، عندما شاع جهل الناس في فهم المصطلحات ومدلولاتها، لاسيما إذا كانت تنتمي إلى العلوم الدخيلة. ولا ريب في أنّه أول معجم ظهر عند العرب بهذا الرقي والتنظيم والعمق.

فكان صاحبه في ذلك رائداً ممتازاً بين الروّاد المشهورين. ولعل أهم ميزة في كتاب العين هي أنه كتاب في علم الأصوات ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من شرّع منهاجاً للناس في هذا العلم الذي كانت معطياته موزعة بين معارف لغوية عامة، ووجوه قرائية

خاصة لآيات القرآن الكريم، وتحقيق لفظه وتجويد نطقه ويبدو أن الخليل كان محتاجاً إلى إظهار هذا العلم، والحاجة أم الاختراع، لمبلغ الاعتماد عليه في انشاء معجم شامل للعربية وليس بين أيدينا دليل واحد يشير إلى أن أحداً تقدم الخليل في هذا المجال. لذلك اعتبرناه رائداً في هذا العلم كريادته في العلوم اللغوية والعروض عند العرب. ولعل المقدمة التي وصفها الخليل لكتاب العين هي أفضل ما يعتمد في الاشارة إلى ريادة هذا الرجل في علم الأصوات.

وتقع هذه المقدمة في ثلاث عشر صفحة، وتضم نحواً من مئة وسبعين مصطلحاً في علم الأصوات[١٢]. وتظهر أهمية المعطيات الصوتية المستمدة من مقدمة كتاب العين حين يقف الباحث لأول مرة على نصوص علمية تؤسس لعلم الأصوات. فيجد أنها ضمّت مبادئ علم الأصوات النطقي، كالحديث عن جهاز النطق وأعضائه، وتحديد المنظومة الصوتية، والتركيز على المبدأ الصوتي في اللغة، وتقسم الأصوات على صوائت وصوامت، فضلاً عن مبادئ علم الأصوات التشكيلي، كائتلاف الحروف والصفات التركيبية، أو صوغ الكلمات حكاية للأصوات الطبيعية، ونحو ذلك مما لا تفيه حقه إلاّ الدراسات المتعمقة ولا غرابة في ذلك ما دام الخليل عالماً رياضياً، وموسيقياً وواضعاً لعلم العروض عند العرب، ولغوياً ومحيطاً إحاطة تامة بعلم القراءات القرآنية.

ولقد نبه الخليل إلى أن مصطلح ذو وجهين: وجه لغوي، ووجه علمي، وإلى أن الكلمة في اللغة عنصر ذو ركنين هما: الدّال والمدلول. فإذا كانت الدلالة اللغوية مبّنية على المواضعة الاجتماعية العامة، فإنّ الدلالة الاصطلاحية مبنية على المواصفة العلمية الخاصة، لذلك جعل تحليله للمصطلحات قسمين: تحليلاً لغوياً، وتحليلاً علمياً.

أمّا التحليل اللغوي فقد استمد مصدره في كتاب العين من مصادر عربية صرفة لا أثر فيها لأية مادة لغوية دخيلة أو معرّبة. وقد استعمل الخليل في وصف جهاز النطق مفردات عربية تنتمي إلى مجال (خلق الإنسان) كما دلت على ذلك مراجعة كتب (خلق الإنسان) ولاسيما كتاب ثابت بن أبي ثابت في هذا

الموضوع. وتنتمي بقية المصطلحات الصوتية إلى مجالات الدلالة العربية. وهي واردة بدلالاتها اللغوية في المعجمات العربية كافة. لكن الخليل هو الذي وضع معظم المصطلحات المنسوبة كالأسلمية والحلقية، والذلقية والنطقية وسواها، وتنتمي أصول هذه المصطلحات إلى مجال الدلالة الحسي لارتباط معظمها بالمعطيات الحسية لا الذهنية فمعظمها يعين بالحواس(١٣).

أمّا من حيث أصول اللغة، فالمصطلحات عامة تنتمي إلى المولّد، وقد دخلت في نسيج الغربية لشدة الحاجة إليها، ولجريان معظمها على ألسنة علماء اللغة والشرع، وشيوعها في المصنفات العلمية التي صارت مصدر المعرفة بعد انتهاء المصادر السماعية.

وأمّا من الناحية العلمية، فنذكر المصادر المعرفية والعلمية الأصيلة. وهي تتمثل في معارف العرب عن خلق الإنسان وقدراته الحسية، وآليات الجسم الإنساني مما ترسخ لدى العرب عبر الخبرات المتراكمة، وقد أفسح الجو الحضاري الناهض وقتئذ أوسع مجال للنهضة العلمية. وكانت زكاة العلم نشره، ونشر العلم جزءاً من العبادة. وقد ولد هذا المفهوم المتقدم للعلم في سعته وعمومه، وشموله الناس دونما تفرقة بين عربي وعجمي، وفقير وغني، ذكر وأنثى. فجاءت النهضة شاملة، ولا تزال آثارها حتى يومنا هذا ملء السمع والبصر.

وجدير بالذكر أنّ الخليل لم يشر إلى علم الأصوات عنواناً أو باباً أو جزءاً من عمله في المقدمة، بل عرض المعلومات الصوتية من غير تعيين للعلم الذي تنتسب إليه، وسعى إلى تقديم مادة صوتية تصلح أساساً لبناء المعجم، مع الأسس اللغوية الأخرى كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ولا يمنع هذا من إعادة تصنيف المادة الصوتية الواردة في مقدمة كتاب العين وفق الدرس اللساني الحديث؛ لأنّ فيه كشفاً لجهود الخليل الرائدة في هذا المجال.

ويشير تاريخ الدرس الصوتي إلى أهمية ما وصفه الخليل لتأسيس مجال لغوي جديد صار ميداناً للاستثمار. فقد نقل سيبويه الكثير مما قاله الخليل في كتاب العين، ونقل ابن دريد أجزاء في المقدمة

واستعمل مصطلحات الخليل كما أثبت الأزهري معظم المقدمة وما ضمّته من مصطلحات ومعلومات، أما ابن جني فقد أفاد كثيراً من المقدمة في كتابه "سرّ صناعة الاعراب" كالذلاقة والاصمات وذوق الحروف وائتلافها، ونقل مكّي بن أبي طالب مصطلحات كثيرة نسبها صراحة إلى الخليل، كما نقل الاسترابادي مصطلحات صوتية للخليل في شرح الشافية، وانفراد أبو حيان الأندلسي في كتابه: "تذكير النجاة" بروايات مختلفة لمقدمة كتاب العين. ويطول بنا المقام لو رحنا نتتبع وجود هذه المصطلحات الصوتية في مصنفات اللغة ومعجماتها وكتب التجويد والبلاغة والإعجاز وسواها.

والخلاصة أنّ المعلومات الصوتية التي أوردها الخليل في مقدمة كتاب العين هي عربية المصدر لغة ومعرفة؛ لأنها تخلو من التأثر بأي علم أجنبي ترجم إلى العربية. وهي معلومات رائدة لا تعرف لها أساساً متقدماً والمصطلحات الواردة فيها حية أيضاً، إذ تداولها العلماء على اختلاف تخصصاتهم، وجعلوها عدتهم في الدرس الصوتي وتطبيقه على النحو الذي تجلىّ في علم التجويد بصورة خاصة. وتدل بنية هذه المصطلحات دلالة قاطعة على سعة الكلام العربي المسموع، وقابليّته للتطوير الدلالي دونما حاجة كبيرة إلى الاشتقاق والتوليد اللفظي والدخيل.

أما كتاب البيان والتبين للجاحظ(١٤)، فقد ضم كثيراً من الجوانب العلمية في الحقل اللساني، وكان صاحبه يدرك ادراكاً عجيباً أصول هذا العلم، فتشخيصه لمفهوم الحرف Phonenie ، وللوظيفة الحرفية Phonologie، توصل إليها عن طريق التحليل الوظيفي للحروف Analyse Phonologiqi. وقد قدم لنا نماذج عن ذلك في البيان والتبين، لا تختلف عن التحاليل المستعملة الآن في الدراسات اللسانية، كما أنه كان يميز تمييزاً واضحاً بين محور التخيير Le Paradguse، ومحور التأليف Suntagme اللذين يعدان من الدعائم في اللسانيات الحديثة. وليس من المبالغة قط أن نقول: "إن لسانيات الجاحظ لسانيات علمية تجريبية. نشأت في ظروف شبيهة بالظروف التي نشأت فيها اللسانيات الحديثة. فاعتبار الكلام البشري رسالة Message، تبلّغ إلى المخاطب على غرار الرسالة الدينية أدى بالجاحظ إلى الغوص بعيداً

في قضايا التوصيل وشروط التأدية، وتضافر البيئة البصرية والظروف السياسية التي كان يعيشها، هيَّأ له الجو الملائم لذلك. فالاولى قدمت له نماذج شتى من اللغات الأجنبية، من اللهجات المحلية الوسيلة الوحيدة التي تمكّن من التمييز بين ما هو مشترك بين جميع اللغات وما هو مختصّ ببعضها.. والثانية قدمت له الحافز الأول في نشأت العلوم والتقنيات، أي الصراع العقائدي المتمثل هنا في الدفاع عن الرسالة الإسلامية، مقامة الزحف الثقافي في جميع أشكاله اللسانية والحضارية"[١٥]. وهنا تطرح مسائل لسانية على جانب من الأهميّة، كفعالية اللغة، ومردودها، ونموها، وغير ذلك من القضايا الحيوية الجديرة بالاهتمام حتى في عصرنا الحاضر. وهنا تتجلى عبقرية الجاحظ اللساني. إنه سيقدم بنفسه بتجارب ميدانية يجمع فيها عدة رسائل مكتوبة، ويستمع لعدة خطب ملفوظة فيعدد جميع حروفها، ويلحظ ترداد كلّ حرف ليستخلص وظيفته ومردوده في اللغة. ليس هذا فحسب، بل يقابل بين الحروف العربية وبعض الحروف الأجنبية، ليستنتج أنّ لكل لغة حروفاً تدور في أكثر كلامها كاستعمال الروم للسين، ويشاهد تداخل اللغات، ونرى كثرة ذلك على السواحل والحدود.

وفي الوقت الذي يدرك فيه أنّ اللغة نظام متكامل وّمُسْتَوٍ ومطّرد، يكتشف علاقتها بالحياة اليومية، ودورها في تكوين فكرة القومية، وتقوية العصبية المهنية. وهي تعلم الإنسان كل شيء ولاسيما التفكير، كما تعلمّه القول والعمل. والقول فيها بالنسبة إلى العمل كالمرآة بالنّسبة إلى الشخص، والظل بالنسبة إلى الجسم، يعكس صورته، ويحكي حركاته، ولا مجال للفصل بين هذا وذاك. وللجاحظ في البلاغة آراء طريفة ومهمة فهي ليست علماً فقط، وإنما هي أدب أيضاً، ومجمل قضايا لغوية هي في صميم العلم اللساني. وهي بلاغة لا تتبرأ من النحو، ولا تقف عنده فهي من هذا الوجه شبيهة جداً باللسانيات الحديثة لاسيما وأنها تهدف إلى دراسة الكلام البشري دراسة علمية، والبلاغة في التعبير الجاحظي ليست في كثير من الأحيان سوى التبليغ أو التوصيل كما يقول علماء الألسنية اليوم. بل أكثر من هذا، إن الجاحظ المتكلم لا يقبل أن يحصر بلاغته في الدليل اللساني، فهو يتناولها من خلال جميع دلائلها اللسانية وغير اللسانية وهي بهذا

أقرب إلى علم السيمياء La semiology الذي يكثر عليه الكلام في اللسانيات الأوروبية الآن، وللجاحظ نظرية في الكلام تشكل حجر الزاوية في نظامه البلاغي واللساني. أما الموضوعات المهمة التي يطرقها فيها، فتوجد بصورة خاصة في كلامه على أصناف الدلالات وعن كل ما يمسّ النظام الصوتي والبنيوي في اللغة، وكذلك في حديثه عن اللفظ والمعنى وعن الأقسام التالية:

ونظرية الدلالات – علمية الكلام في إطارها النظري – نظرية اللغة – نظرية اللفظ والمعنى – نظرية المطابقة أما عملية الكلام، فإن أحسن وسيلة لإبراز أهميتها وطرافتها، تذكّر ما قاله جاكوبسون: "إنّ الكلام يجب أن يدرس من خلال وظائفه المتنوعة"(١٦). ولمعرفة هذه الوظائف يجب أن نلقي نظرة وجيزة على العوامل المقومة لكل أداء لساني أو عملية تبليغ لفظية.

ومن القضايا الألسنية التي يعالجها الجاحظ في كتابه "البيان والتبين"، ما يأتي:

المعاني القائمة – المعاني المتصورة في الأذهان – العوامل المختلجة في النفوس – المعاني المتصلة بالخواطر – المعاني الحادثة عن الفكر – الخط – العقد(١٧) – الاشارة – اللفظ– أسماء المعاني المتصورة – النصبة(١٨) – المعنى في حسن الاختصار – وضوح الدلالة– البيان – التبين – القصيد – النثر – السجع – الكناية – الايجاز – المجاز – الرسالة – الخطبة – الكلمة – الغريب – البديع – الطريق – الوصل...وغيرها.

فكل هذه الموضوعات درسها الجاحظ في سياق اللغة، التي يدخل تصورها عنده في نطاق فلسفته العامة ونظريته في المعرفة. ولا يختلف تصوّر الجاحظ للغة في شكله ومضمونه عما وصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة، وأساس هذا التصور أربع دعائم هي: الصوت – التقطيع – التأليف – الفصاحة. وتحت كل عنوان يورد الجاحظ تحليلات واسعة يضيق المجال عن ذكرها.

فلو أخذنا مفهوم الفصاحة مثلاً، فإنّنا نجد للجاحظ في هذا المجال صولات وجولات حاول الدكتور عبد السلام المسدّي وهو أحد الألسنيين البارزين في تونس أن يلخصها فقال: "إنّ عبارة فصاحة وردت عند

الجاحظ في معان خمسة هي[١٩]:

أولاً: ألسنية عامة مضمونها عملية الكلام، وغايتها البث.

ثانياً: فزيولوجية صوتية، مضمونها عملية التصويت وغايتها سمعية جمالية.

ثالثاً: لغوية نفسانية، مضمونها الخطابة وغايتها التأثير.

رابعاً: منطقية ألسنية، مضمونها المحاجّة وغايتها الاقناع.

خامساً: أسلوبية مضمونها الخصائص المميزة، وغايتها الخلق الفني، ويميز المسدي[٢٠]، بين الفصاحة والافصاح عند الجاحظ ، فمفهوم الإفصاح ورد عند في ثلاثة معان: معنى بلاغي، ومعنى أسلوبي، ومعنى فني يفيد التعويل على الطاقات الدلالية في اللغة أكثر من طاقاتها الايحائية.

إنَّ كتاب البيان والتبين لأبي عثمان الجاحظ غنيّ جداً بالمعطيات الألسنية التي هي موضع درس متسع في هذه الأيام. وقد يكون من المفيد أن نختم الكلام على اللغة العربية والألسنية المعاصرة بالخلاصة التالية:

فعلم اللسانيات هو" العلم الذي يدرس شؤون اللسان البشري بصفة ظاهرة طبيعية لها قوانينها ونظامها العلمي. وهو يشمل الدراسات اللغوية كلها، وما يتصل بها من دراسات علمية حديثة اقتضاها تداخل العلوم، سواء أكانت علوماً إنسانية كعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، وعلم التاريخ والجغرافيا، والفلسفة والأدب، والانثروبولوجيا وسواها، أم علوماً بحتة، كالرياضيات والفيزياء، والطب، والبيولوجيا، والفيزولوجيا والاتصالات وسواها أيضاً، مما يجعلنا واثقين من صحة القول: "ما من علم من العلوم إلاّ وهو ذو صلة بعلوم اللسان"[٢١].

إنَّ اللسان البشري يعدّ اليوم من الظواهر التي تحلل عناصرها بالآلات الإلكترونية، وتبصر ذبذباتها، وتقاس بدقة فائقة مقاديرها، كسرعة تردّد الذبذبات، وسعتها، وشدتها، وتسجّل بالأشعة السينية الحركات الفزيولوجية المحدثة للحروف الجامدة والمصوّبة، من الحنجرة، إلى الشفتين، وأن في الامكان ترتيب

وإحصاء جميع ما يرد في نصّ من النصوص مهما يبلغ طوله وحجمه بالأدمغة الإلكترونية – فكل هذه الوسائل أدّت إلى اكتشاف علاقات ثابتة بين العناصر اللغوية لفظاً ومعنى. ولذلك يمكن أن تصاغ صياغة رياضية على نحو ما نجده في العلوم الفيزيائية – ناهيك بأنّ الرياضيات الحديثة قد ساعدت على تجديد نظرتنا إلى البنى اللغوية وعلى استنباطها، وتمثيلها، وتقديرها والحاق بعضها ببعض لجوامع بينها، والتمييز الدقيق بين مراتبها، وايجاد المقاييس التي يضبطها تفريع الفروع والأصول وغير ذلك(٢٢).

الخاتمة:

وبعد دراستنا لموضوع الالسنية وما لها من اهمية في موضوعات اللغة العربية توصلنا الى انه، بفضل هذه الحصيلة الكبيرة من الاكتشافات التي تتجاوز في الحقيقة ميدان العلوم اللسانية إلى ميادين علم الصوت، – وهو فرع من فروع الفيزياء – وفزيوجية الأصوات، والدماغ، والأعصاب، وعلمي النفس والاجتماع، وميدان الاستعلام الآلي، In formati أو المعلوماتية، وعلم الألكترونيك النظري والتطبيقي، وغير ذلك من ميادين البحث الذي أفاد منها اللسانيات. وفي ضوء النظريات التي وضعها اللسانيون في زماننا، حدث اكتشاف آخر مهم بالنسبة إلى الباحثين في اللسانيات بصفة عامة، وإلى الباحثين العرب بصورة خاصة، وهو وجود مجموعة من المفاهيم والتصوّرات العلمية. وإلى جانبها مجموعة من المناهج التحليلية عند أقدم النحاة العرب لا تقل أهميّة عما أثبتته اللسانيات الحديثة ومن أشهرهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، والأخفش الأوسط، وأبو علي الفارسي والجاحظ وابن جني والسيوطي وابن مالك وسواهم، وذلك في حقل المسند، والمسند إليه، والمبني، والمبني عليه أو بناء كلمة على أخرى، في التركيب غير الاسنادي، والكلام واللغة، والالفاظ والمعاني والعلوم البلاغية في الاستعارة والكناية وأنواع المجاز، والنظرة إلى اللسان، وتعبيره عن الفكر.

فمن الضروري العودة إلى التراث اللغوي القديم ودراسته في ضوء التطورات العلمية الحديثة، وفي ضوء التفاعل الألسني مع العلوم الرياضية والمنطق، علم النفس، والتحليل النفساني، والاجتماعي، والاعراق والاجناس والانثروبولوجية والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك.

الهوامش:

١) ينظر :مبادئ الألسنية، أحمد محمد قدور/٦.

٢) ينظر: النظرية اللغوية العربية الحديثة، جعفر دكّ الباب/٣٥.

٣) ينظر: من أسرار اللغة، ابراهيم أنيس/١٦.

٤) ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، – ترجمة: كمال بشر/ ٢٣، ونظريات في اللغة، أنيس فريحة/٧.

٥) ينظر: مبادئ ألسنية عامة ،اندريه مارتينه/٨.

٦) ينظر: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، فاطمة بركة الطبّال/١٥.

٧) ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف حزما /١٢.

٨) ينظر: البنيوية وما بعدها، جون ستروك /١٢.

٩) ينظر: اللغة العربية عبر القرون ،محمود حجازي/١٠.

١٠) ينظر: اللغة العربية المعاصرة، محمد كامل حسين/٢٣.

١١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان/٢٠.

١٢) ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي/٣(المقدمة).

١٣) ينظر: البيان والتبين، الجاحظ:١/٥٥.

١٤) ينظر: بحوث ومقالات في اللغة، رمضان عبد التوّاب/١٧.

١٥) ينظر: الخليل وكتاب العين، هادي حسن حمودي/١١، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، أحمد محمد قدور /٣٠.

١٦) ينظر: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون /٨.

١٧) العقد هو الحساب من دون اللفظ والخط.

١٨) النصبة هي "معنى بغير لفظ ، وجسم من دون روح.

١٩) ينظر: الاسلوبية والاسلوب، عبد السلام المسدي/١٥.

٢٠) في مقاله المنشور في حوليات الجامعة التونسية عدد ١٣ ص١٥٢.

٢١) الألسنية العربية ، ريمون طحان:٤٣/١، وينظر: قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدّي:٦.

٢٢) ينظر: العرب وعصر المعلومات، نبيل علي/١١.